



الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأصلی وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

سألني صديقي متعجباً: لماذا يحكمنا الطّغاة؟! فقلت له: بعيداً عن المجاملات والأوهام المخدّرات، يحكمنا الطّغاة لأننا طّغاة، وكما نكون يولّ علينا!!

إنها سنةٌ ربانيةٌ كونيةٌ شرعيةٌ، فالملوكُ والرؤساءُ والأمراءُ والمديرون، كلُّ أولئك صورةٌ وانعكاسٌ لأعمالنا، وكما نكون يولّ علينا، {سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةَ اللَّهِ تَبَدِّيلًا}.

قال الإمام أبو بكر الطروشي المالكي (ت 520) في كتابه "سراج الملوك" (ص: 94): "لم أزل أسمع الناس يقولون: "أعمالكم عماكم، كما تكونوا يولّ عليكم"، إلى أن ظفرتُ بهذا المعنى في القرآن؛ قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا} [الأنعام: 129].

وكان يُقال: ما أنكرت من زمانك فإنما أفسدك عليك عملك. وقال عبد الملك بن مروان: ما أنصفتنا يا معاشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرتهما، نسأل الله أن يعين كلّ على كلّ. وقال قتادة: قالت بنو إسرائيل: إلها أنت في السماء ونحن في الأرض، فكيف نعرف رضاك من سخطك؟ فأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائهم: إذا استعملتُ عليكم خياراتكم فقد رضيتم عنكم، وإذا استعملتُ عليكم شراراتكم فقد سخطتُ عليكم. وقال عبيدة السلماني لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين ما بال أبي بكر وعمر انطاع الناس لهما، والدنيا عليهم أضيق من شبر

فاتسعت عليهما ووليت أنت وعثمان الخلافة ولم ينطاعوا للكما، وقد اتسعت فصارت عليكم أضيق من شبر؟ فقال: لأنَّ رعية أبي بكر وعمر كانوا مثل عثمان، ورعايتها أنا اليوم مثلك وشبيهك!.  
وكتب أخ لمحمد بن يوسف يشكو إليه جور العمال، فكتب إليه محمد بن يوسف: بلغني كتابك وتنظر ما أنتم فيه، وليس ينبغي لمن يعمل المعصية أن ينكر العقوبة، ولم أر ما أنتم فيه إلا من شؤم الذنوب، والسلام؟" اهـ.

وأسنده في (الدر المنثور) عن منصور بن الأسود قال: سألت الأعمش عن قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا}، ما سمعتهم يقولون فيه؟ قال: سمعتهم يقولون: "إذا فسد الناس أُمُرُّ عليهم شرارُهم".  
وقال الرازي في تفسيره "مفاتيح الغيب" (13/150): الآية تدلُّ على أنَّ الرعية متى كانوا ظالمين فالله تعالى يُسلط عليهم ظالماً مثلكم، فإن أرادوا أن يخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم" اهـ.  
وقال شيخ الإسلام في "مجموع الفتاوى" (35/20): "وقد ذكرتُ في غير هذا الموضع أنَّ مصير الأمر إلى الملوك ونوابهم من الولاة والقضاة والأمراء، ليس لنقص فهم فقط، بل لنقصٍ في الراعي والرعية جميعاً؛ فإنه: كما تكونون : يولى عليكم" ، وقد قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا} اهـ.

وممن بين هذه القاعدة العلامة ابن القيم رحمة الله في كتابه الماتع "مفتاح دار السعادة"، حيث استفاض في الكلام على حكمة الله في أفعاله وأقواله.

وبين أنَّ الرعية إذا عدلت عدلت ملوكهم، وإذا ظلمت ظلمت ملوكهم، وإنك تجد كثيراً من أرباب العمل يظلمون عمالهم، فيسلط الله عليهم الملوك بفرض الضرائب عليهم جزاءً وفافاً.

قال ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" (2/721-723): "وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قوئهم على ضعيفهم ولم يُؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه، كيف يُسلط عليهم من يفعل بهم كفعلمهم برعایاهم وضعفائهم سوء. وهذه سنة الله تعالى مُتَّلِّدة قَامَتِ الدُّنْيَا، إلى أن تُطوى الأرض ويعيدها كما بدأها.

وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم، بل كأنَّ أعمالهم ظهرت في صورٍ لاتهم وملوكهم؛ فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلوا عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المكر والخداع فولاتهم كذلك، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممَّن يستضعفونه مالا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم المُلُوك مالا يستحقونه وضررت عليهم المكوس والوظائف، وكلُّ ما يستخرجونه من الضعيف يستخرجُه المُلُوك مِنْهُم بِالْفُؤَادِ؛ فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم.  
وليس في الحِكْمَةِ الإِلَهِيَّةِ أَنْ يُولَى عَلَى الْأَشْرَارِ الْفَجَارِ إِلَّا مَنْ يَكُونُ مِنْ جَنْسِهِ.

ولما كان الصَّدْرُ الأول خيارَ الْقُرُونِ وأبرَّها كانت ولاتهم كذلك، فلما شابوا شابت لهم الولاة، فحكمة الله تأبى أن يُولَى علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز، فضلاً عن مثل أبي بكر وعمر، بل ولاتنا على قدرنا، وولاة من قبلنا على قدرهم، وكلُّ من الأمراء مُوجِّبُ الْحِكْمَةِ ومقتضاه، ومن له فطنة إذا سافر بفكرة في هذا الباب رأى الحِكْمَةَ الإِلَهِيَّةَ سائرةً في الْفَضَاءِ وَالْقَدْرِ، ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً فِيهِ، كَمَا فِي الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ سَوَاءً.

فإياك أن تظنَّ بظنك الفاسد أنَّ شيئاً من أقضيته وأقداره عَارٍ عَنِ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، بل جَمِيعُ أقضيته تعالى وأقداره واقعةٌ على أتمِّ وُجُوهِ الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ، ولَكِنَّ الْعُقُولَ الْمُعْنَفَةَ مَحْجُوبَةٌ بضعفها عن إدراكها، كَمَا أَنَّ الْأَبْصَارَ الْخَفَافِيَّةَ مَحْجُوبَةٌ

بضعفها عن ضوء الشمس، وهذه العقول الضياع إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت، ونطقت وقالت، كما أن الخفافيش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار" اهـ.

وقال الكواكب في كتابه"طبائع الاستبداد" (ص: 24): "إذا سأله سائل: لماذا يبتلي الله عباده بالمستبدّين؟ فأبلغ جواب مُسْكِنُه هو: إنَّ الله عادلٌ مطلقاً لا يظلم أحداً، فلا يُؤْلِي المستبدّ إلا على المستبدّين. ولو نظر السائل نظرة الحكيم المدقق لوجد كُلَّ فرد من أُسراء الاستبداد مُسْتَبْداً في نفسه، لو قدر لجعل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كُلُّهم، حتَّى وربه الذي خلقه تابعين لرأيه وأمره.

فالمستبدون يتولاهم مستبد، والأحرار يتولاهم الأحرار، وهذا صريح معنى: "كما تكونوا يُؤْلِي عليكم" اهـ.

وليس معنى ذلك أن الظالمين المتسلطين من حكامٍ وغيرهم معذورون ولا لوم عليهم، بل هم محاسبون على أعمالهم، وهم مسؤولون عن رعيتهم، وحسابهم عريضٌ وشديدٌ ولن ينجيهم يوم القيمة إلا العدل. بل إنَّ الله عز وجل يُسلط على الحاكم المستبد الذي يظلم رعيته، وينشر فيهم الفساد ظالماً أشدَّ منه ظلماً، يذلُّ ويهينه ويسلب أمواله.

فإن قيل: فما شأن الصالحين من الرعية أن يقع عليهم الظلم؟!

قبل: إن كانت العقوبة جماعية فإنها تعم الصالح والطالع ، كما قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: 25].

وفي الصحيحين عن زينب بنت جحش، رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم، دخل عليها فرعاً يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرِّ قد اقترب، ففتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذه، وحلق باصبعه الإبهام والآتي إليها، قالت زينب بنت جحش قلْتُ يا رسول الله: أهلك وفيينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث.

وتكون المصيبة على المؤمن لطيفة القدر والواقع، وكلما ارتقى بإيمانه حصل له من الخير في السراء والضراء. ففي صحيح مسلم عن صهيب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إنَّ أصاباته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصاباته ضراء، صبر فكان خيراً له.

قال ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" (2/ 80): "ولهذا سلطَ على أنبيائه وأوليائه ما سلطَ عليهم من القتل وأذى الناس وظلمهم لهم وعدوانهم عليهم، وما ذاك لهوانهم عليه ولا لكرامة أعدائهم عليه، بل ذاك عين كرامتهم وهوان أعدائهم عليه وسقوطهم من عينه؛ لينالوا بذلك ما خلقوا له من مساكنتهم في دار الهوان وبينال أولياؤه وحزبه ما هيئ لهم من الدرجات العلي والنعيم المقيم، فكلُّ تسلیط أعدائه وأعدائهم عليهم عين كرامتهم وعين إهانة أعدائهم، فهذا من بعض حكمه تعالى في ذلك ووراء ذلك من الحكم ما لا تبلغه العقول" اهـ.

وإذا أردنا أن نغير واقعنا فينبغي أن نلجم إلى من بيده الأمور، ونتخاذل الأسباب والوسائل الشرعية المقدور عليها، حتى يتحقق التغيير بإذن الله الواحد القدير، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالِّ} [الرعد: 11]، وقال أيضاً: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا بِعِمَّةَ أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ} [53] كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنبهم وأغرقنا آل فرعون وكلُّ كانوا ظالمين} [الأنفال: 54].

هذا والله أعلم، والحمد لله رب العالمين.

المصادر:

صفحة الكاتب على فايسبوك